مقال تحليلي

حرب غزة

الجريمة الأعظم في حق التراث الفلسطيني

لا تترك دولة الاحتلال الإسرائيلي أي فرصة متاحة إلا وتسعى من خلالها لتدمير وسرقة جزء من التراث الفلسطيني، بهدف طمس الأدلة التاريخية المادية التي تثبت ملكية الأرض لأصحابها الأصليين، استعدادًا لقلب الحقائق بعد مدة عن طريق الادعاء بأن أرض فلسطين كانت على طول الزمان إقليمًا يهودي الهوية والحضارة، وأن أبناء الشعب الفلسطيني ليسوا سوى دخلاء يحق لإسرائيل تهميشهم والتنكيل بهم وأيضًا طردهم إذا لزم الأمر.

تعتبر مأساة قطاع غزة الحالية إحدى أكبر صور الإجرام الإسرائيلي في حق التراث الفلسطيني، فالعشرات من المباني التراثية والمتاحف دمرت بشكل كلي أو جزئي بفعل القصف الإسرائيلي المتعمد على مدار عام، وسط صمت دولي مجحف أسهم في زيادة اجتراء قوات الاحتلال المتوحشة على الإرث الثقافي الإنساني العالمي بأرض فلسطين، كما اجتراؤها على سفك دماء المدنيين العُزّل من أبناء الشعب الفلسطيني المكلوم.

مصطفى عبد اللاه

باحث برنامج السياسات العامة بالمركز المصري للفكر والدراسات الاستراتيجية

يسعى "المركز المصري للفكر والدراسات الاستراتيجية" إلى تقديم الرؤى والبدائل المختلفة بشأن القضايا والتحولات الاستراتيجية، على الصعيد المحلي والإقليمي والدولي على حد سواء. ويولي اهتمامًا خاصًا بالقضايا والتحولات ذات الأهمية للأمن القومي والمصالح المصرية.

ecss.com.eg

/ecsstudies

تاريخ مُمتد

تُرجِح المصادر التاريخية أن العرب الكنعانيين كانوا أول من عَمر وسَكن منطقة قطاع غزة في حدود عام 2500 ق.م، الذي كان جزءًا من دولتهم الممتدة من لبنان شمالًا حتى صحراء النقب جنوبًا، ولقد اشتهر الكنعانيون بالتجارة والزراعة وصناعة النسيج والفخار، كما تميزوا في تشييد العمارة الحربية القوية، التي وجدت بعض أثارها داخل مدينة غزة الحالية، تلك المدينة التي اتخذها الكنعانيون بوابة للتجارة بين شرق البحر المتوسط وشمال الجزيرة العربية.

ارتبط تاريخ قطاع غزة أيضًا بتاريخ مصر القديمة الحربي، فلقد كانت أرض القطاع مجالًا لعبور الجيوش المصرية المتصدية لهجمات البدو والرعاة القادمين من الشرق، وتذكر الوثائق المصرية سيرة عدد من الملوك الذين فتحوا مدن داخل وحول القطاع مثل غزة وعسقلان، ليتخذوا من تلك المدن حدًا شرقيًا للإمبراطورية المصرية، وأيضًا رأس حربة للهجوم على الأعداء من الحيثيين والبابليين والعموريين والكنعانيين وبني إسرائيل وغيرهم.

كما تورد المراجع ذكر استغلال شعب الفلستي أو الفلسطينيين لانهيار دولة الكنعانيين على يد ملوك مصر، حيث أقاموا لأنفسهم حكمًا فدراليًا يجمع خمس مدن بوسط فلسطين وهم غزة وإسدود وإشقلون وجات وعقرون، ولقد كان لمدينة غزة في هذا العهد علاقات اقتصادية قوية مع شعوب البحر المتوسط، كما وقعت المدينة -شأنها شأن باقي مدن فلسطين الأربع الأخرى- في عداوة دائمة مع بني إسرائيل الذين سكنوا الجبال بشرق وشمال فلسطين الحالية، ولم تسجل المصادر التاريخية أي معلومة عن تمكن بني إسرائيل من حكم إقليم غزة سوى في عهد الملك النبي سليمان بن داوود، لكن سرعان ما نفض الفلسطينيون هذا الحكم زمن ابنه الملك رحبعام بن سليمان.

سقطت منطقة غزة بعد ذلك في قبضة الدولة الأشورية عام 734 ق.م زمن الملك تيجلاث بليسير الثالث، لكن الجيش المصري بقيادة الملك نخاو الثاني تمكن من تحريرها عام 609 ق.م وإعادتها تحت مظلة الحكم المصري، قبل أن يكمل طريقه نحو سوريا حيث قضى نهائيًا على مملكة الأشوريين. إلا أن حكم المصريين على إقليم غزة لم يصمد كثيرًا بفعل البابليين الذين سيطروا على المنطقة لعشرات السنين حتى مجيء الفرس عام 525 ق.م.

خلف الفرس وراءهم منطقة عامرة، حتى إن مدينتي غزة ورفح كانتا توصفان بشدة غناهما ونشاطهما التجاري وقت غزو الإسكندر المقدوني لفلسطين عام 332 ق.م في أثناء زحفه نحو الشرق باتجاه وسط آسيا، هذا ما حفز الحكام الأغريق من البطالمة والسلوقيين إلى الاهتمام بإقليم غزة ومدنه لما له من أهمية عسكرية وتجارية استراتيجية.

حذى الرومان بعد سيطرتهم على إقليم غزة في عام 96 ق.م حذو الإغريق في الاهتمام بتلك المنطقة وبمدنها الرئيسية، حيث أوضحت الوثائق أن حكومة روما زادت في تعمير مدينة غزة وصنعت لها نظامًا إداريًا خاصًا، وسكت نقودًا باسمها، وهو ما أسهم وفق رأي بعض المؤرخين في حفاظ مدينة غزة على ثقافتها وهويتها العربية الواضحة على مدار خمسة قرون، حتى مجيء جيش المسلمين من شبه الجزيرة العربية عام 634 م.

تعددت الدول الإسلامية التي حكمت إقليم غزة بداية من الدولية الأموية، مرورًا بالدولة العباسية والطولونية والأخشيدية والفاطمية والمملوكية ثم العثمانية، ولقد كانت منطقة غزة في عهد تلك الدول إحدى محطات عبور التجارة الدولية المارة بين آسيا وأفريقيا من جهة وبين آسيا وما وراء البحر المتوسط من جهة أخرى، كما كانت شاهدًا على وقوع الكثير من المعارك الضارية التي نشبت بين أمراء الحكم في تلك الدول، فلقد كان حكام مصر يجابهون أمراء الشام وأيضًا ملوك الصليبين لأسباب سياسية عدة بالنطاق الجغرافي الحالي لقطاع غزة على اعتبار أنه منطقة تخوم فاصلة بين الإقليمين.

شهد الوضع السياسي التقليدي لأرض فلسطين تغييرًا جذريًا في فبراير 1917 إبان الحرب العالمية الأولى، حينما وصلت

القوات البريطانية لرفح دافعة أمامها قوات السلطان العثماني المدحورة، ليدخل قطاع غزة بعد ذلك في دوامة الصراع مع إسرائيل الممتدة منذ ذلك الحين.

تراث غني

أدى توارد الحضارات والشعوب على أرض منطقة غزة، إلى خلق حالة من التراكم التاريخي لمعالم التراث الأثري التي تنتمي لمختلف العصور، حيث أوضحت إحدى الدراسات أن قطاع غزة كان يمتلك قبل اندلاع الحرب الحالية 325 موقعًا تراثيًا، وكانت هذه المواقع منوعة ما بين حقول للتنقيب الأثري ومقابر تاريخية وأسواق وخانات ومدارس وقصور قديمة، بالإضافة إلى العديد من المنازل والمساجد والزوايا والكنائس والأديرة التراثية – انظر الشكل التالي رقم -1.

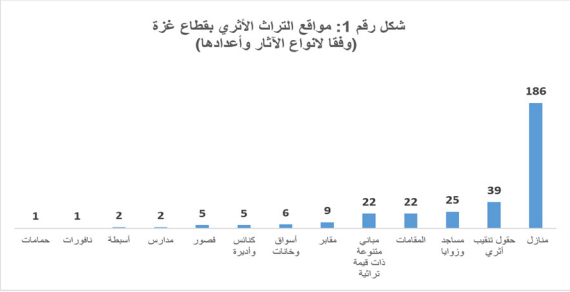

المصدر: Report on the Impact of the recent war in 2023 on the culture heritage in Gaza strip – Palestine, Arab network of Civil Society to safeguard cultural heritage (ANSCH), 7th of November 2023.

توزعت تلك المواقع التراثية على محافظات قطاع غزة الخمسة، لكن غالبيتها كانت بمحافظة غزة، وتحديدًا في نطاق مدينة غزة التي تعد تاريخيًا أقدم وأهم مستوطنة بشرية عرفتها منطقة غرب فلسطين، حيث ترجع أقدم الشواهد على وجود الإنسان فيها إلى العصر البرونزي المبكر، هذا ما أسهم في وجود 60% من مواقع التراث المادي بتلك المحافظة، في حين توزعت النسبة الباقية من المواقع التراثية على محافظات خان يونس وشمال غزة والمحافظة الوسطى ورفح – انظر الخريطة التالية رقم -2.

خريطة رقم 2: عدد المواقع التراثية بكل محافظة في قطاع غزة ونسبتها المئوية تبعًا للتوزيع.

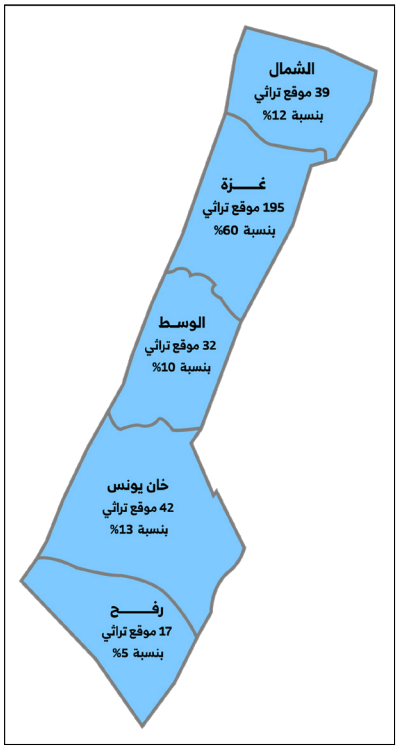

المصدر: حصر وإعداد الباحث.

اتصفت بعض من مواقع التراث في قطاع غزة بتميزها التاريخي والمعماري، حيث ارتبطت جزء من تلك المواقع بشخصيات مهمة في تاريخ الشرق الأدنى، فيما تميزت المنشآت بمواقع تراثية أخرى بفخامتها وجمالها، في حين استُخرج من بعض المواقع التنقيبية روائع أثرية غير مألوف وجودها كثيرًا بأرض فلسطين.

نجد من بين أشهر مواقع التراث المادي الفلسطيني في قطاع غزة الجامع الكبير المعروف أيضًا باسم المسجد العمري بحي الدرج وسط مدينة غزة، الذي كان في الأساس معبدًا وثنيًا مكرسًا لعبادة المعبود المحلي القديم المسمى داجون أو مرناس قبل أن يُهدم عام 402 م، لتُبنى مكانه كاتدرائية يوحنا المعمدان عام 406، التي حُولِت في عام 700 إلى مسجد يحمل اسم الخليفة المسلم عُمر ابن الخطاب،

تكريمًا من أهل فلسطين لهذا الحاكم الذي أقر عدم هدم أي كنيسة مسيحية فلسطينية بعد نجاح الجيش المسلم في اقتحام البلاد، ولقد عانى المسجد على مدار تاريخه من حالات خراب وتهدم دورية تنوعت أسبابها، لكن دائمًا ما كان يُعاد تعميره بل وزيادة مساحته في بعض الأحيان- انظر الصورة التالية رقم -3.

صورة رقم 3: منظر داخلي لصحن ومأذنة المسجد العمري الكبير بغزة

المصدر: مركز أبحاث التاريخ والفنون والثقافة والإسلامية، منظمة التعاون الإسلامي، 2020.

كما كان من بين أشهر المباني والقصور التاريخية في قطاع غزة وفي عموم فلسطين، المبنى ذو الطراز المملوكي بحي الدرج داخل البلدة القديمة في مدينة غزة والمعروف باسم قصر الباشا أو قصر آل رضوان، الذي تميز بزخارفه وعناصره المعمارية والفنية الفخمة. ويرتبط هذا المبنى بتاريخ غزة بداية من عهد حكم دولة المماليك حتى العصر الحديث، حيث تعددت استخداماته بين سكن لبعض العائلات ومدرسة للتعليم الأساسي، ومقرًا لحكم منطقة غزة، ومتحفًا للآثار –انظر الصورة التالية رقم -4

صورة رقم 4: منظر خارجي لواجهة قصر الباشا بمدينة غزة

المصدر: الموقع الرسمي لجامعة الأقصى، 2019.

ليست المباني التراثية فقط هي أميز ما تمتلكه غزة، فهناك أيضًا مواقع أثرية كشف عنها العلماء، وكانت ذات قيمة تاريخية وتراثية وفنية استثنائية، منها مثالًا موقع ميناء الأنثيدون الذي يصفه المؤرخون بأنه أول ميناء بغزة، حيث تم تشيده في القرن التاسع قبل الميلاد وظل عاملًا حتى عام 1100 م، ليشهد على مدار تاريخه توارد العديد من الدول والحكام على منطقة غزة بداية من الأشوريين مرورًا باليونان والرومان وصولًا للإمبراطوريات الإسلامية المبكرة حتى العهد الفاطمي، هذا ما حدى بمنظمة اليونيسكو لوضعه على قائمتها المؤقتة للتراث العالمي في 2012 لحين نقله للقائمة الدائمة.

أيضًا من بين المواقع الأثرية المهمة بقطاع غزة موقع دير القديس هيلاريون مؤسس الرهبنة المسيحية في فلسطين، الذي تم تشييده عام 400 م، وكشف عن أنقاضه في تلة أم عامر شمال مدينة دير البلح في العام 1999، ليجد المنقبون بقايا كنيستين وقاعة للتعميد ومقبرة عامة بالإضافة لعدد من المرافق كصهاريج المياه وأفران الطبخ والحمامات وقنوات الصرف الصحي، فضلا عن العثور على أرضيات مصنوعة من الفسيفساء الملونة والحجر الكلسي وبلاط الرخام، التي تصور مشاهد نباتية وحيوانية مزينة بنقوش وزخارف دائرية – انظر الصورة التالية رقم -5.

صورة رقم 5: منظر لإحدى الأرضيات المزخرفة بمنطقة دير القديس هيلاريون

المصدر: الموقع الرسمي لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة، 2022.

تخريب مُمنهج

يلاحظ منذ بداية اندلاع الحرب الغاشمة على قطاع غزة في أكتوبر الماضي من عام 2023، قيام قوات الاحتلال الإسرائيلي بتدمير العشرات من المباني التراثية والتاريخية، وذلك إلى جانب تدمير ممتلكات المواطنين المدنيين والمؤسسات الحكومية والعامة الفلسطينية تحت ادعاءات واهية مختلفة.

حيث وثقت التقارير الرسمية الفلسطينية منذ بداية الحرب وحتى فبراير الماضي 2024 تدمير 195 موقعًا ومبنى تراثيًا، أي ما يمثل 60% من المواقع التراثية في قطاع غزة، ولقد دُمرت الأغلبية من تلك المواقع بشكل كلي فيما دمر عدد آخر بشكل جزئي –انظر الجدول التالي رقم -6. عادت تقارير أخرى لتؤكد ارتفاع عدد المواقع المدمرة إلى مائتين وستة مبنى بحلول يونيو الماضي، ويُعتقد أن تلك الأرقام قد قفزت على مدار الأشهر الثلاث الأخيرة، حتى أن الخراب طال جميع المواقع التراثية بنسب متفاوتة.

جدول رقم 6: نماذج من المواقع والمباني التراثية المدمرة في غزة منذ أكتوبر 2023، ومستوى الدمار في كل منها.

أسم الموقع أو المبنى التراثي	حالة الدمار المسجلة
كنيسة بيروفيوس الأرثوذكسية	دمار كلي
المسجد العمري الكبير	دمار كلي
موقع ميناء الأنثيدون	دمار كلي
قصر الباشا	دمار كلي
قلعة السلطان برقوق	دمار كلي
موقع مقام خليل الرحمن	دمار كلي
بيت السقا الأثري	دمار جزئي
موقع تل السكن الأثري	دمار جزئي
موقع دير القديس هيلاريون	دمار جزئي

المصدر: حصر وإعداد الباحث.

نال التخريب أيضًا من مؤسسات ثقافية لها دورها في الحفاظ على التراث الفلسطيني المادي وغير المادي بغزة وخارجها، وكان في مقدمتها اثنى عشر متحفًا أثريًا وتراثيًا دمروا كليًا أو جزئيًا، كان منهم مثالًا متحف القرارة الذي كان يضم 3500 قطعة أثرية وفنية تشرح نواحي مختلفة من تاريخ وثقافة فلسطين، ومتحف رفح الذي كان يضم 320 نموذجًا من قطع الملابس المطرزة التي تمثل الأزياء الفلسطينية التراثية التقليدية من مختلف بقاع فلسطين.

كما تضررت أيضًا بشكل كلي أو جزئي اثنين وثلاثين مؤسسة ومركزًا ثقافيًا منهم مؤسسة السنونو للفنون والثقافة ومركز غزة للثقافة والفنون ومسرح هولست، فضلًا عن اثنتي عشرة مكتبة عامة منهم مكتبات كبرى مثل مكتبة مركز الثقافة والنور ومكتبة خان يونس ومكتبة بلدية غزة، وثمانية مطابع ودور نشر مثل مطابع الهيئة الخيرية ومعرض الشروق الدائم للكتاب ودار الكلمة للنشر، وأيضًا ثلاث استديوهات للإنتاج الفني.

دفع هذا الوضع التراثي والثقافي المأزوم بمؤسسات دولية كالبنك الدولي واليونيسكو إلى إصدار تقديراتها الأولية حول قيمة الأضرار التي لحقت بتراث غزة، التي بلغت على مدار نصف عام وحتى الربع الأول من العام الحالي 2024 ما مجموعه 319 مليون دولار أمريكي، ومن المحتمل أن يزيد هذا الرقم بنسب كبيرة حال إجراء مسح دقيق لحالة جميع مواقع التراث المادي التي طالها التخريب.

تحركات مطلوبة

يحتاج التراث الفلسطيني في غزة الآن إلى اتخاذ خطوات سريعة ومتوازية بهدف إنقاذ ما يمكن إنقاذه من آثار القطاع، علاوة على الاستعداد لمرحلة ما بعد التهدئة والتي سيتعين فيها زيارة المختصين الأثريين لكافة المواقع التراثية بقطاع غزة لمعاينتها والوقف على حالة الضرر المحققة على كل منها، استعدادًا لتدشين مشروع كبير لترميمها وصيانتها وإعادة إعمارها، ومن تلك الخطوات المطروحة ما يلي:

1 - تعاون وزارة السياحة والآثار الفلسطينية مع مؤسسة اليونيسكو بهدف عمل خريطة تفاعلية يجرى تحديثها دوريًا لمواقع الآثار والتراث الفلسطيني بقطاع غزة، لتوضح تلك الخريطة للعالم حجم الدمار التراثي المتزايد بالقطاع، والخسائر الأولية المتوقعة بسبب الاعتداءات العسكرية الغاشمة على تراث غزة.

2 - مطالبة اليونيسكو بعدم الاكتفاء بوضع دير القديس هيلاريون على قائمة التراث المادي العالمي المُعَرَض للخطر، بل التوجه لوضع قطاع غزة بكافة مواقعه التراثية على تلك القائمة، تبعًا للقواعد الدولية المنظمة مثل اتفاقية لاهاي لحماية الملكية الثقافية في حالة النزاع المسلح للعام 1954، وأسوة بمواقع مدن تراثية إقليمية كصنعاء اليمنية وغدامس الليبية اللتين وضعتا من قبل على قائمة الخطر بسبب معايشة دولتيهما لنزاعات مسلحة وعمليات تخريب تهددان تراثيهما.

3 - التعاون بين وزارة السياحة والآثار الفلسطينية والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومنظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة، في تدشين مشروع هدفه جمع كافة المعلومات التاريخية والفنية المتاحة عن مواقع التراث الأثري في غزة، كي تكون مرجعًا مستقبليًا للعاملين في مشروعات ترميم وصيانة المواقع التراثية التي دُمرت بفعل الاعتداءات الإسرائيلية.

4 - وأخيرًا: استمرار دول الإقليم والمجتمع الدولي في مساعيها الجادة لوقف الجموح العسكري الإسرائيلي في القطاع وفي خارجه، لتنتهي الخسائر البشرية والمادية التي تعانيها غزة، والتي من بينها خسارة التراث المادي العالمي على أرض القطاع وايضًا خسارة الكوادر الفلسطينية العاملة على هذا الملف.

أولًا: المراجع العربية

- كتاب بعنوان "تاريخ غزة"، عارف العارف، مطبعة دار الأيتام الإسلامية في بيت المقدس، 1943.
- بحث بعنوان "الأهمية اللوجستية لمصادر المياه العذبة في سيناء أثناء الحرب العالمية الأولى"، أماني صلاح الدين سليمان، المجلد الخامس والخمسون، المجلة التاريخية المصرية، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، 2021.
- تقرير بعنوان "الدليل الأثري لمدينة غزة"، أبو ركبة والشرافي، الطبعة الأولى، مؤسسة بيت الصحافة، غزة، 2022.
- التقرير الأولي الرابع حول أضرار القطاع الثقافي: الحرب على قطاع غزة 7 أكتوبر 2023 – 11 فبراير 2024، وزارة الثقافة الفلسطينية، رام الله، فلسطين، إبريل 2024.

ثانيًا: المراجع الأنجليزية

- Report on the Impact of the recent war in 2023 on the culture heritage in Gaza strip – Palestine, Arab network of Civil Society to safeguard cultural heritage (ANSCH), 7th of November 2023.
- The unity in traditional mosque architecture: The great Omari mosque report, Gaza City, Palestine, Abdel Rahman Mahrok, Vol. 2B, PP. 1-18, Proceeding of symposium on Mosque architecture, College of architecture & planning, King Saud university, 1999.
- The Cultural Heritage Devastations in Gaza Strip and the Palestinian Occupied Territories report, International council on monuments and sites ICOMOS, 16th of December 2023.
- Gaza strip – Interim damage assessment report, European union & The world bank & United nation, Summary Note 29th of March 2024.
- Cultural Genocide: a report on Israel's international destruction of Palestinian cultural property during the Israeli war 2023-2024, Palestinian center for human rights, June 2024.

يمكنك الاستزادة
حول تأثيرات طوفان
الأقصى بعد مرور
عام عليه

يمكنك الحصول
على نسختك
الـ PDF من على
مكتبة المركز المصري للفكر والدراسات الاستراتيجية
SCAN ME!